طفل يحبو

يسرى الأيوبي

– "عينك على الصغير.. الله يجبرك ياجارتنا!"

كانت تردّد تلك الجملة على مسمع جارتها كل صباح وهي في طريقها الى "الريجي" بلهفة تستدر الإشفاق، وتنتزع نفسها انتزاعا من قرب وليدها لتعمل وتعيش وهي أشد ما تكون عليه انشغال بال..

لم تكن تصدق أنه أصبح في الشهر العاشر من عمره، فما عاش لها طفل قبله حتى هذه السن.. إنها لاتدري كيف ولم يموت أطفالها في شهورهم الأولى.. فكم من مرة التاع لها قلب وجرح كبد.. تذكرهم واحدا واحدا والغصة تخنقها فتقول لها الجارات معزيات:

– "الله يعوضك! الله يرزقك.. انهم بعد صغار واللوعة فيهم أهون.."

فتهز برأسها وعيناعا مغرغرتان بالدمع وتقول لنفسها "لايحس بالنار الاّ من تلذعه النار.." ويرزقها الله ويعوضها، ولكن المأساة تتكرر.. مرض وموت بسرعة صاعقة لا تكاد تصدق.. يكف القلب الصغير عن الخفقان دون أن يقوى دمعها السخين على إنقاذه..

ما كانت لتستشير طبيبا، وأنّى لها ذلك الترف وهي عاملة لايكاد يتجاوز أجرها عشرة ليرات في الأسبوع وزوجها عاطل عن العمل في أكثر الأحيان..

ولكنها عرفت العلة حين حدثتها إحدى جاراتها المسنّات أن لها قرينة من الجن عقيما شريرة تحسدها على نضارة أطفالها فتتخطفهم لتشبع بهم رغبة الأمومة في نفسها.. وحدثتها أن خير طريقة هي أن تدبر لها حيلة تضللها .. ولما تساءلت الأم المسكينة بعينين حائرتين حزينتين عن طريق تنجو فيه بجنينها الذي تحسّه في تلك اللحظة يخفق في أحشائها كطائر يدفّ بجناحيه أجابت:

– "حين تلدين سندفن الخلاص في قبر فتظن القرينة أن الطفل قد مات وتكفّ عنه شرّها."

وأشرق وجه الأم بالأمل.. وذكرت حين كانت تعاني الوحام الثقيل في الأشهر الأولى وآلام الظهر والبطن والغثيان أخيرا، وهي في جلستها الرتيبة أمام

مقاطف التبغ تعرّشه لتهيئه للآلة كي تفرمه، والرائحة العنيفة المنتشرة في المكان تكاد تخنق أنفاسها، كيف كانت روحها في عذاب مماثل . فلا فرحة ترتعش في كيانها لهذا الذي يرتعش في أحشائها.. وما استرسلت قط في أمان حلوة كما تسترسل جميع الأمهات.. إنهن يعددن أطفالهن للحياة أما هي فلأي غد تعدّه؟ وكان ينتشر في أعماقها انقباض، انفباض ثقيل وتحاول أن تكبح خيالها بقسوة عن مجرد التفكير فيه، وكأنها تخشى أن يكون في عملها تحد للقدر أو إلحاح عليه فيفجعها في أمنيتها الغالية مرة خامسة.. وكم من مرة أصغت وهي مكبة على عملها في صمت لاتشارك في حديث مع زميلاتها الى هواتف نفسها تتضرع في صلاة حارة:

– "دعه يعيش يارب! دعه يعيش هذه المرة!" فلا تلبث أن تؤنب نفسها لتلك الجسارة وتهمس:

– "لااعتراض على مشيئتك يارب.. افعل ما تشاء.."

لقد زايلتها الآن تلك الأحاسيس.. وحل محلها شبه اطمئنان.. نجحت الحيلة وسيعيش طفلها!.. ها هو ذا قد بلغ الشهر العاشر دون أن يناله سوء.. وأي طفل وأي جمال ونضارة وايناس! لكأنما استل منها كل مظهر للعافية فكان من العسير أن يصدّق الإنسان أنها أم له بنحولها وشحوبها وذبول عينيها..

طوّقت عنقه بعقد فيه فيل وكفّ وخرزات زرق وشبّة وتمائم.. وعلقت على جدار غرفتها الرثة أضمومة من الثوم حتى تطرد القرينة من الولوج اليها فتنال الطفل الحبيب بالأذى.

وانفرد عقال لسانها فاذا بها لاتكف عن الحديث عنه في مكان عملها وتوصي به الجارات في غيابها وقلبها يخفق قلقا عليه. وتجلس أمام مقاطف التبغ الساعات الطويلة، وتشعر بالحليب ينفر من ثدييها المدرّين، ويغرق ثيابها الداخلية، وتطغى عليها موجة من الحنان والأسى وتترقرق في عينيها دمعة وهي تهمس لنفسها:

- "ان طفلي جائع الآن.. انه يبكي..ولعل جارتنا لاتسمعه من صوت وابور الغاز، فكثيرا ما تنساه في غمرة عملها، ولا تطعمه وجبة الكشك التي صنعتها له."

وتعد يداها المعروقتان الى تعريش التبغ بمرارة وعصبية.. ان على الطفل أن ينتظر عودة أمه حتى الساعة الرابعة.. وتتأوه.. لكأنما التبغ أجدى على الناس والحياة من أن يشبع الصغير الحبيب من ثدييها ويدفأ بحنانها ورعايتها!.

* * *

أما اليوم فكان لديها سبب أكبر للهفة والقلق:

- "عينك على الصغير.. الله يجبرك يا جارتنا.."

أصبح الصغير يحبو.. والنهار متجهم راعد ماطر وسقف الغرفة يسحّ منه الماء.. ولكنها وضعته في قرنة جانحة فوق الحصير وأدفأته بكثير من الأغطية!..

أفاق الصغير وراح يدغدغ في فراشه فرحا ثم نفض عنه الأغطية وراح يلعب بأصابع قدميه يتفحصها ثم يقربها من فمه.. نام نوما مستغرقا ورّد خديه، وأفاق نشيطا، ولم يلبث أن قلب على بطنه ورفع رأسه الصغير مجيلا بعينيه في أنحاء الغرفة ثم أخذ يعبث بالأغطية، وأكثرها أردية قديمة، وينثرها على الحصير بعد أن يملّ من مصّ أطرافها فلا تجود عليه بشيء، ثم أخذ ينتش من أطراف الحصير، ويعلك القش بثناياه الصغيرة الحلوة ويلفظها..

واشتد جوعه وسرى البرد الى جسده فارتعش واخذ يزحف باكيا وهو يردد:

- "ماما – ماما – مـــامـــا"

ثم ألهاه كرسي واطئ من القش فحاول أن يتشبث به ويقف على قدميه فقلبه ووقع وإياه وعاد الى البكاء..

أرعدت السماء من بعيد فأصخى السمع كأنما يرتقب فرجا.. ولم يلبث أن جلجل رعد قريب فانتفض وتعالى صياحه الجزع وراح يحبو فتجاوز الحصير الى الأرض البليلة وامتصت ثيابه الماء وتحوّل الإحمرار في وجنتيه وأطرافه الى زرقة.. ومرّ بمنطقة يرشح السقف منها بغزارة، وأخذت حبات الماء الكبيرة تنثال

على رأسه وتغرق شعره، وتنساب على رقبته الى ظهره، ورفع وجهه وهو بين البكاء والدهشة فتوثبت عليه القطرات. ومدّ لسانه ليلحس ما يسيل حول شفتيه فرأى شيئا يلمع في نافذة عريضة كانت أمه تحتفظ فيها ببعض الأدوات المنزلية كي لاتطالها يده إذ ضاقت الكتابي التي في الغرفة بمحتوياتها، وكان ذلك مصباح الإضاءة الغازي، فأسرع نحوه فرحا وهو يردد: "دغا.. دغا.. دغم.." وحاول الوقوف على قدميه مستندا الى الحائط فما تمالك نفسه ووقع، وعاود بكاءه بزعقات أشد من الأولى ، ولكنه مع ذلك كان مصمما على الحصول على ذلك الشيء الذي يلمع في النافذة. وكرر محاولته فنجح وتمسك بحافة النافذة ثم أخذ يجذب الورقة التي في أسفل المصباح فيقترب الشيء اللامع رويدا رويدا نحو حافة النافذة، ولم يلبث أن وقع على جبينه وترك عليه كدمة زرقاء قبل أن يهوي الى الأرض ويتحطم الى عشرات من النثارات الصغيرة ويهرق منه البترول.. وهوى الصبي وهو يعول فوق الزجاج المحطم والغاز المهراق، وانتشرت على الأرض بقعة كبيرة من الدم لم تلبث قطرات المياه المنثالة أن ساقتها في شبه مجار متفرعة نحو عتبة الغرفة حيث تجمع ماء كثير..

جرح الطفل يده، واشتد عويله حتى دكنت زرقة وجهه.. وكان البلل قد اخترق ثيابه الى جسده المقرور فراح ينتفض ويصطك فكاه وقد استبد به الألم والبرد والجوع ويلحس الدماء والغاز والماء عن يده الجريحة ويلتقط نثارات الزجاج ويودعها فمه فتتكسر تحت ثناياه ويسيل الدم من فمه.. فأخذ يحبو ويعول كأنما في الحبو والعويل منجاة له مما يعاني فيرسم على الأرض بحبوه خطوطا حمراء حتى بلغ به المطاف الى العتبة حيث تجمعت المياه في شبه بركة صغيرة.. ومدّ اليها يدا ثم أخرى ولم يلبث أن غطس رأسه في الماء، وأخذ يضرب بقدميه محاولا التنفس فاستقرّ جميعه في البركة.. وهدته الغريزة ليرفع رأسه ويتشبث بحافة العتبة محاولا الخروج غير أنه لم يفلح فوقع مرة أخرى، ولكن غريزة الحياة كانت أقوى من أن تستسلم بسهولة فأخذ يبتلع الماء ويرفع رأسه جاهدا ليلتقط أنفاسه، وما عاد يبكي.. كف عن البكاء وهو يكافح الموت ساعات، والموت يأبى الاّ أن يطبق عليه الخناق.. وأخذت الزرقة في وجهه وأطرافه تشتد دكنة والدم

يتجمد في عروقه، وما عاد يحس بشيء.. لقد أصابه خدر.. خدر لذيذ.. وأحس برغبة في النوم كأنما تهدهده ذراع أم حنون. وأغمض عينيه كأسعد طفل، وراح في سبات عميق.. أبدا لن يحبو بعد اليوم، ولن يقلق عليه بال أم وهي أمام مقاطف التبغ تعرّشه بمرارة وعصبية.. ولن تسلاه جارة غارقة في عملها في المطبخ..

لقد نجحت القرينة أخيرا.. انها أمكر من أن تتطلي عليها حيلة!..

* * *